

## المغرب قبيل الفتح الإسلامي

معلوماتنا عن المغرب قبيل الفتح الإسلامي تقتصر على أقاليم برقة وطرابلس وأفريقية التي تقابل ما يعرف اليوم بتونس ، وشيء قليل عن بقية سواحل المغرب إلى المحيط الأطلسي .

فيما يتصل ببرقة نجد أنها كانت قبيل الفتح الإسلامي داخلية في زمام مصر بناء على آخر تقسيم للدولة البيزنطية ، وهو الذي قام به الإمبراطور مورسيوس ( موريق ) ، وقد ضمت فيه برقة إلى مصر . وكان اسم برقة قبل الفتح الإسلامي سيريناياكا نسبة إلى مدينة يونانية أنشأها اليونان تسمى سيريني ويكتبها العرب قيرين وأحياناً قوريناء ، وهي بلدة قريبة من مدينة برقة الحالية .

ويسمى إقليم برقة أحياناً أنطابلس وهو تحريف للفظ يوناني هو بنتابوليس Penta-polis أى المدائن الخمس ، وهي مدن صغيرة أنشأها الإغريق في هذا الإقليم ومنها قيرين التي ذكرناها .

ولكن الصلة الحقيقية بين مصر وهذا الإقليم البعيد عنها إلى الغرب لم تكن واضحة في ذلك العصر ، وهو النصف الأول من القرن الميلادي السابع ، فلا ندري إن كان بها عامل للروم أو ممثل لإدارة مصر البيزنطية . وعندما وصل العرب إلى هذه النواحي وجدوا السلطة بيد قبيلتين بربريتين زناتيتين هما لواتة وهوارة ، وهما من قبائل البربر البتر وسيكون لهما شأن كبير في العصور الإسلامية . ويذهب بعض مؤرخي المغرب ومنهم ابن خلدون إلى أن هوارة من البرانس أى البربر الحضر المستقرين ، وهذا لا يغير من واقع الأمر شيئاً ، لأن تصرف هوارة كان دائماً مع الزناتيين .

فإذا انتقلنا غرباً إلى إقليم طرابلس ، وأصل هذا اللفظ إغريقي أيضاً معناه المدن الثلاث ( ترى بوليس ) وجدنا أن الإقليم لم يكن واضح التبعية ، فقد كان في الأصل تابعاً للرومان ثم للروم ، وبعد ذلك لا نعرف إلى أى ناحية سياسية كان

يتبع حينذاك ، وعندما يصل العرب إلى هذه النواحي سيلقون فيه قبيلة بربرية كبيرة هي نفوسة وكان مركزها منطقة جبلية إلى الجنوب من طرابلس تسمى جبال نفوسة . وفي تلك الأيام ، أى في النصف الثانى من القرن السابع الميلادى ، كانت تلك الجبال جبلاً خضراء عامرة بالقرى والمرعى والناس ، وكانت قبيلة نفوسة لهذا من أقوى وأهم قبائل طرابلس ، وعندما يصل العرب إلى هناك سيكون تعاملهم مع هذه القبيلة . أما فيما يتعلق بإقليم أفريقية فإننا نجده تابعاً للدولة البيزنطية ، فهناك حكم بيزنطى واضح يقوم به عامل للروم يلقب بالبطريق Patricius ومعه قوة عسكرية ، والبلاد مقسمة إلى ولايتين كبيرتين : شمالية أى إلى الشمال من موقع القيروان الحالية تقريباً وتمتد إلى البحر ، وتسمى تلك الولاية زويجتانيا ، وهناك كانت العاصمة قرطاجنة ذات التاريخ الطويل . وهناك أيضاً كانت الجالية الرومية متركزة في مدن الساحل من أمثال قرطاجنة وسوسة والمنستير والحمامات . ومع تلك الجالية الرومية التي كانت تتكون من الروم ومن المهاجرين من شواطئ أوروبا الجنوبية ، كانت تعيش طائفة من سكان المغرب تسمى بالأفارقة ومفردها أفريقي ، ويطلق هذا اللفظ على مزيج من البربر والأجناس التي حكمت أفريقية وأجزاء من ساحل المغرب . وهم جنس يختلف عن البربر بعض الشيء ، فهم حضر مستقرون ما بين زراع وتجار ورعاة في النادر . وكانوا يتكلمون لغة ساحلية من لغات شواطئ المتوسط ، وكانت المسيحية منتشرة بينهم ، وكان الكثيرون منهم يعرفون اللاتينية والإغريقية ، وهؤلاء هم الذين كانوا يتعاملون مع الرومان والروم ، وسيتعامل العرب مع هؤلاء ، وسيكسبونهم إلى الإسلام ، ويختلطون بهم وبالبربر . ومن هذا كله سيتكون سكان أفريقية الإسلامية الذين سنتحدث عنهم .

أما الولاية الجنوبية فتسمى بيزاسينا ، وتقع جنوبى خط مدينة القيروان الحالية ، وهى ولاية مراعى ومزارع ، وفي جنوبها تقع بلاد الجريد أى بلاد النخيل ، وهى واحات وافرة المياه معظم سكانها من البربر ، ولكن كانت الروم هناك حصون متناثرة ، ومن هنا سُمى بعض نواحيها باسم قصص طليط من اللفظ اللاتينى Castella ( ومعناه الحصون ) ، ومدنه الرئيسية قابس على

البحر ، وهى باب أفريقية من الشرق ، وقفصة وتوزر ونفطة وهى عواصم بلاد الجريد التى يتوسطها شط الجريد . وجنوبى بلاد الجريد ، تقع بلاد الساحل ، والمراد بها هنا ساحل الصحراء ، لأن العرب كانوا يرون أن الصحراء هى بحر الرمال ، وكانوا يسمون الواحات بالجزائر ، ولفظ الواحات أو الواح لا يطلق فى الجغرافية العربية إلا على واحات مصر لأن اللفظ مصرى قديم : واح ومعناه الماء .

## جريجوريوس أو جرجير :

قبيل الفتح العربى كان يحكم أفريقية بطريق يسمى جريجوريوس الذى يسميه العرب جرجير ، وكان هذا الرجل قد اختلف مع الروم وحاول الاستقلال عنهم ، ونشبت خصومة كبيرة بين الجانبين بينما كان العرب قد أتموا فتح مصر فعلاً . ولم يكن يخطر على باله أن قوة من الجيوش العربية الإسلامية كان يمكن أن تأتى من ناحية الشرق ، ولهذا كان ظنه أنه سينشئ دولة لنفسه فى هذه الناحية ، ولهذا ولكى يحتمى من الروم انسحب إلى الداخل تاركاً العاصمة قرطاجنة وتحصن فى بلدية داخلية كان لها حصن منيع تسمى سبيطلة إلى جنوبى القيروان الحالية .

وفى سبيطلة اطمأن ذلك الرجل ، ولكن اطمئنانه لم يدم ، لأنه فوجئ بطلائع العرب تدخل إقليم برقة . أما بقية المغرب فلا نعرف عنها إلا القليل فى ذلك الحين وهذا القليل يتعلق بالسواحل حيث كانت مراكز الجاليات الرومية أو اللاتينية وسنتحدث عنها فى مناسباتها .

من الناحية الحضارية كانت أفريقية مركز عمران رومى أى بيزنطى ، وكانت إقليمياً عامراً أى فيه مدن كثيرة وأرض مزروعة وموان على الساحل والبلاد عامرة بالحركة . وكانت المسيحية منتشرة بين الأفارقة والجاليات الرومية طبعاً ، أما البربر فلم تدخل المسيحية بينهم بصورة واضحة ، فكانوا على الوثنية ، ولا توجد علاقات ظاهرة أو عميقة بين الروم والبربر . ولهذا سنجد أن العرب عندما يصلون إلى أفريقية سيكون تعاملهم مع الروم أولاً ، فلما تغلبوا على مقاومتهم وخلصوا البلاد منهم دخلوا فى علاقات مع البربر .

# الفتح العربي

## فتح برقة وطرابلس :

أتم العرب فتح مصر بمعاهدة الاسكندرية في ١٦ شوال ٢١ هـ / ١٧ سبتمبر ٦٤٢ م واستقر عمرو بن العاص في عاصمته الجديدة الفسطاط ، وهناك نجد عمرو بن العاص ذلك الفاتح العظيم ينهض للاستيلاء على برقة في أواخر سنة ٢٢ هـ / أوائل ٦٤٣ م . فسار بنفسه إليها ، ووقع بينه وبين اللواتيين والهوريين قتال قصير ، ثم استسلموا للعرب وعقدوا مع عمرو بن العاص اتفاقاً على أن يؤديوا له مبلغاً قدره ثلاثة عشر ألف دينار في السنة بصفة جزية ثم عاد إلى مصر . ونفهم من هذا أن برقة كما قلنا كانت جزءاً من أرض أو ولاية مصر فكان فتحها استكمالاً لفتح مصر ، وأن هذه الجزية أو الأتاوة كانت جزءاً من خراج مصر العام .

وبعد ذلك بقليل نجد أن عمراً يقود حملة سنة ٢٣ هـ / ٦٤٤ م فيفتح إقليم طرابلس ويستولى على قاعدته التي تحمل نفس الاسم بعد قتال عنيف ولكنه قصير مع الروم والبربر أيضاً ، وكان كل اهتمامه موجهاً إلى التفاهم مع قبيلة نفوسة وتم له ذلك ، ثم عاد إلى مصر سنة ٢٥ هـ / ٦٤٥ م وكانت هذه هي آخر فتوح ذلك الرجل العظيم عمرو بن العاص ، لأنه عزل بعد ذلك عن ولاية مصر ، نعم إنه عاد مرة أخرى إلى ولاية مصر سنة ٤٠ هـ / ٦٦٠ م عقب قيام خلافة معاوية بن أبي سفيان ولكن سنه ( عمره ) في ولايته الثانية كانت قد علت فلم يقدّم بفتوح ، وعلى أي حال فإن ما قام به هذا الرجل من فتوح في تاريخ الإسلام يضعه في الصف الأول من بناء الدولة الإسلامية ، فهو الذي فتح فلسطين ومصر ، وهذا الجزء من المغرب ، وأضاف بذلك إلى دولة الإسلام أكثر من ثلث ما فتحت جيوشها إلى ذلك الحين ، وفي التاريخ الإسلامي لمصر والمغرب يعتبر عمرو بن العاص أول أبطال هذا التاريخ .

## موقعة سببيلة وفتح أفريقية :

كانت الخطوة التالية من فتوح المغرب بعد ذلك بأربع سنوات ، وتمت على يد

والى مصر بعد عمرو بن العاص ، وهو عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى عثمان ابن عفان على مصر بعد عزله عمراً ، والفكرة عن هذا الرجل فى كتب التاريخ الإسلامى سيئة بسبب ما كان منه فى شبابه الباكر من تصرف غير سليم مع الرسول ﷺ ، وتصرفه هذا يرجع إلى صغر سنه فى ذلك الحين . وبعد فتح مكة سعى له أخوه فى الرضاع عثمان بن عفان فعفا عنه الرسول ﷺ وحسن إسلامه بعد ذلك ، وعندما أتىحت له الفرصة فى خلافة أخيه عثمان أثبت أنه من خيرة رجال الأجيال الأولى من المسلمين ، وإن كان معاصروه من العرب لم يغفروا له ما كان منه فى شبابه الباكر .

سارع عبد الله بن سعد بن أبى سرح بعد استقراره فى الفسطاط باستئذان عثمان فى المسير لمواصلة فتح المغرب ، وبعد تردد أذن له عثمان فى ذلك ، فسار بقوة عسكرية من نحو عشرين ألف رجل معظمهم من الفرسان فى اتجاه أفريقية .

وفى هذا الجيش اشترك نفر كبير من أبناء الصحابة ، والكثيرون منهم يسمون عبد الله ، ولهذا يسمى ذلك الجيش جيش العبدالة ، ومن أشهر من سار فيه عبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير ، وكان فى الجيش أيضاً عبد الملك بن مروان ، وكانوا جميعاً شباباً فى السن الباكرة ، وكان أبائهم يشركونهم فى الفتوح ، لأنها كانت ميدان التدريب والتكوين لشباب الجيل الثانى من أمة الإسلام ، ففى ميادين القتال كانوا يقتبسون ثقافة العصر وهى الجهاد والفتوح وممارسة الحكم واستخراج الأحكام من الأصول وهى القرآن والسنة .

كان ذلك سنة ٢٨ هـ / ٦٤٩ م ، ففىها وصلت طلائع الجيش العربى إلى أفريقية . وفوجئ بها جرجير فاستعد للقاء ، ونلاحظ من ذلك التاريخ الباكر أن كثيرين من البربر وخاصة من لواتة وهوارة ونفوسة قد انضموا للعرب وأسلموا للتقارب الاجتماعى بين الحيين . ونستنتج من هذا أن الكثيرين من أولئك البربر دخلوا فى الإسلام فى ذلك الوقت المبكر ، ومن المعروف أن البربر ، مثلهم فى ذلك مثل الفرس وأهل الشام ، كانوا من أوائل الشعوب إسلاماً .

ويقدر المؤرخون العرب قوة الروم بمائة ألف أو ١٥٠,٠٠٠ مقاتل وهذا بعيد نظراً للظروف التي ذكرناها ، ولكن لا شك في أن الجيش الرومى كان أضعاف الجيش العربى ، وإن كان معظم العرب فرساناً ، وهذه حقيقة لها أهميتها .

كان اللقاء عند سببيلة ، وعلى عاداتهم انتصر العرب على عدوهم ، وقتل جرجير وأسر وقتل الكثير من رجاله ، وفر الباقون إلى السواحل ، وبدلاً من أن يعقد عبد الله بن سعد اتفاقاً أو يضم هذه الناحية إلى دولة الإسلام فيقيم فيها والياً ويترك حامية كما كانت عادة العرب ، نجد أن عبد الله بن سعد يتفق مع أهل البلاد على جزية قدرها ٢٠,٠٠٠ دينار ثم يعود إلى مصر .

وربما كان هذا الرقم خطأ إذ أنه قليل جداً وغير واضح كذلك ، لأننا لم نسمع قبل ذلك أن أخذ العرب أتاوة من قوم ثم انصرفوا عنهم ، إنما كانت عاداتهم أن يأخذوا جزية مقررة ممن لا يرغبون في دخول الإسلام من أهل البلاد المفتوحة . على أى حال أخذ عبد الله بن سعد هذه الجزية وعاد إلى مصر في أوائل ٢٩ هـ / ٦٤٩ م ولا نعلل هذه العودة السريعة إلا بما نعرف من أن خلافاً حاداً نشب بين عبد الله بن سعد بن أبى سرح وغيره من كبار أبناء الصحابة الذين كانوا معه وخاصة عبد الله بن الزبير ، الذى تزعم الروايات أنه البطل الحقيقى لمعركة سببيلة وهو أمر غير صحيح كما رأينا ، فوجد عبد الله بن سعد أن خير ما يفعله هو أن يعود مسرعاً إلى مصر دون أن يترك حامية أو يقوم بأى عمل سياسى أو عسكرى أو ينشئ أو يثبت شيئاً من السلطان للعرب على هذه الناحية .

ولكننا نلاحظ على أى حال أن هذه الهزيمة التى أصيب بها الروم كانت حاسمة إلى حد ما ، فلم تعد لهم قوة كبيرة هناك بعد ذلك ، لأن ظروف الدولة البيزنطية كانت سيئة جداً إذ ذاك نتيجة لاضمحلال قوة خلفاء هرقل . ونتيجة حاجة الدولة البيزنطية إلى رجال أقوياء فى قلب الدولة ليعيدوا النظام ويثبتوا فى وجه الزحف العربى الذى كان يجتاح بلادهم فى كل ناحية .

ولم يقم العرب بشئ فى أفريقية حتى أيام معاوية بن أبى سفيان ، ولكننا نلاحظ أن نوعاً من الحلف قام بين البربر والعرب ، فمن ناحية اطمأن البربر إلى أن

لهم في العرب حليفاً قوياً يستطيع حمايتهم من الروم إذا فكر هؤلاء في العودة إلى البلاد ، وعلى أى حال فقد أفاد البربر من ذلك الغزو العربى فائدة كبيرة ، فقد استقلوا عن الروم ، ولم يعودوا يؤدون إليهم جزية ، وكانوا يشعرون أن الروم إذا عادوا لن يلبث العرب أن يعودوا هم الآخرون ، وكل ذلك في صالحهم .

### حملة معاوية بن حديج السكونى والقضاء على أمال

الروم في استعادة أفريقية سنة ٤٥ هـ / ٦٦٥ م :

شغل العرب عن أفريقية والفتوح عامة بسبب فتنة عثمان ، ثم الحرب الأهلية بين على ومعاوية . ولم يتجدد نشاط الفتوح مرة أخرى إلا بعد استقرار الأمر لمعاوية سنة ٤١ هـ / ٦٦١ م ، التى تسمى عام الجماعة . ولو أراد الروم أن يستعيدوا أفريقية خلال تلك الفترة لتمكنوا من ذلك بسبب انشغال العرب ، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك بصورة فعالة ، فقد أرسل الروم بطريقاً جديداً يسمى جناديوس حاول أن يفرض سلطاناً رومياً على أفريقية فعجز عن ذلك ، ثم اختلف مع رجل من قواده ولجأ بعد ذلك إلى العرب وذهب إلى القسطنطينية أو إلى دمشق فيما يقال ، واستحث معاوية على إتمام فتح أفريقية . وتلك فى الغالب أسطورة . والمهم لدينا أن معاوية أرسل سنة ٤٥ هـ / ٦٦٥ م جيشاً يقوده واحد من كبار العثمانية وهو معاوية بن حديج السكونى . فلما وصل إلى أفريقية وجد أن الروم قد نزلوا البلاد فى ميناء سوسة يقودهم قائد يسمى نقفور ، فلما سمع الروم بمجىء العرب أسرعوا إلى سفنهم ، واستولى ابن حديج على بعض المراكز الرومية القوية ، ولكن العرب هذه المرة أيضاً لم يتركوا عاملاً بل انسحبوا إلى مصر . وتعتبر حملة معاوية بن حديج غزوة من الغزوات التمهيديّة التى قام بها العرب فى المغرب قبل أن يتخذوا قراراً نهائياً بفتح هذه البلاد فتحاً دائماً ثابتاً .

فقد تنبّهت الخلافة الأموية بعد هذه المقدمات إلى أهمية أفريقية وضرورة مواصلة الفتوح فيها . إذ أنها كانت ميداناً مفتوحاً لا يعترض تقدم العرب فيه مانع كبير . ثم إن كثيراً من البربر كانوا قد أسلموا فى ذلك الحين . ولا يستبعد أن يكون الكثيرون من العرب قد تخلّفوا فى أفريقية لتعليم البربر قواعد الإسلام ، وسنرى مصداقاً لذلك فى كلامنا عن عقبة بن نافع الفهري .

وإذا كان معاوية بن حديج قد عاد إلى الفسطاط بعد حملته على أفريقية فلم يكن السبب في ذلك أنه أحس أنه انتهى من واجبه في تلك الجبهة الغربية ، ولكن معناه أن هذا الرجل - وكان والياً على مصر - لم يكن يستطيع الابتعاد عن مركز ولايته زمناً طويلاً ، فهو يغزو ويعود إلى قاعدته في الفسطاط . ولو استمر الحال على ذلك لما تم فتح المغرب أبداً ، لأن الضربات السريعة لا تعتبر فتوحاً ، ولا تنشأ عنها فتوح .

ولكى يبدأ الفتح الجدى المستمر لأفريقية كان لابد لها من وال خاص بها يتولى قيادة الفتوح فيها ، ويقوم بوضع أسس الحكم الإسلامى فيها بعد أن يجعلها ولاية من ولايات دولة الإسلام ، وهذا هو ما سيفعله عقبة بن نافع .

### ولاية عقبة بن نافع الأولى على أفريقية

٥٠ - ٥٥ هـ / ٦٧٠ - ٦٧٥ م :

كان في الجيش الأول الذى قاده عمرو بن العاص في فتح برقة وطرابلس قائد يسمى نافع بن عبد القيس الفهرى ، وكان زوج أخت عمرو بن العاص ، فعهد إليه عمرو بعد أن فتح طرابلس في أن يسير بقوة من الجند نحو الجنوب للاستيلاء على إقليم فزان الواقع جنوبى طرابلس على بعد ٨٠٠ كم في الصحراء ففعل ، وكان معه في هذه الحملة ابنه عقبة بن نافع بن عبد القيس ، وكان صبياً في العاشرة . وترك العرب في فزان حامية صغيرة من الجند كان من بينهم نافع بن عبد القيس وابنه عقبة ، وخلال فترة الفتوح ظل عقبة مع الجند في هذه النواحي ينتقلون ما بين برقة وفزان وودان وزويلة من مراكز الصحراء ، وفي هذا الجو نشأ عقبة بن نافع نشأة جهاد وتمرس بشئون القتال ، وتحول إلى شخصية عربية أفريقية شديدة الاتصال بشئون المغرب ، ووثيقة العلاقات بالعرب والبربر في نفس الوقت ، ولهذا فبعد عودة معاوية بن حديج من المغرب بخمس سنوات أى سنة ٤٠ هـ / ٦٦٠ م نجد معاوية بن أبى سفيان يولى قيادة الفتوح في المغرب عقبة بن نافع ويرسل له قوة عسكرية للقيام بذلك العمل ، وهنا يبدأ الفتح الحقيقى لأفريقية والمغرب ، لأن عقبة بن نافع يعتبر أكثر العرب معرفة بأفريقية وشئونها في ذلك الوقت لطول خبرته بشئونها ، وعندما قام بحملته الأولى على

أفريقية كانت لديه فكرة واضحة عن المغرب وما ينبغي عمله لفتحه فتحاً ثابتاً .

وسنلاحظ أثر ذلك في أعمال عقبة ، فهو أول فاتح عربي يدخل هذه البلاد على رأس جيش وفي ذهنه فكرة واضحة عما ينبغي عمله لتحويل أعمال الفتوح في أفريقيا من غزوات تروح وتعود بغنائم فحسب إلى فتوح منظمة ترمى إلى إنشاء ولاية أفريقية ومد حدود الإسلام غرباً وإدخال البربر في الإسلام .

### حملة عقبة بن نافع الأولى وتأسيس

القيروان ٥٠ - ٥٥ هـ / ٦٧٠ - ٦٧٥ م :

سبق أن ذكرنا أن عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري كان بين جنود أفريقية الأولى ، وقد اشترك وهو صبي في محاولات فتح أفريقية الأولى مع أبيه ثم أصبح قائداً شاباً من قادة الجيوش الإسلامية العاملة في الفتوحات في الجناح الغربي ، وذكرنا أنه تحول مع الزمن إلى شخصية مجاهدة متصوفة نذرت نفسها للفتوح . وعندما وصله الأمر بولاية أفريقية وكان في نواحي زويلة قرب فزان ، نهض إلى أفريقية من هناك عام ٥٠ هـ - ٦٧٠ م ، فخرج بمن معه حتى وصل إلى ساحل البحر المتوسط ، وهناك لقي القوة العسكرية التي أرسلها الخليفة معاوية ابن أبي سفيان للعمل تحت إمرته فوصل غدامس ، ومن هناك دخل أفريقية واتجه رأساً إلى قرب موقع سبيطة ، وكان قد قرر إنشاء عاصمة أو مركز عسكري للمسلمين في أفريقية فاختار موقعاً يقع إلى الشمال قليلاً من سبيطة التي وقعت عندها المعركة المشهورة ، وبدأ في اختطاط عاصمة مناسبة للمسلمين .

وكانت القاعدة في إنشاء تلك المدن الإسلامية الأولى التي تسمى الأمصار هي البدء ببناء المسجد الجامع ، وفي مواجهة المسجد كانوا ينشئون دار الإمارة ( أي مركز ومقر الحاكم ) وبين المسجد ودار الإمارة يترك طريق واسع ، ويعتبر ذلك الطريق بداية الشارع الرئيسي بالعاصمة ويسمى بالسماط أو المحجة ، وفيما يتعلق بهذه المدينة الجديدة سمى هذا الشارع بالسماط الأعظم ، وكانت العادة أن يتركوا حول هذين المبنيين خلاء واسعاً مستديراً ، ثم بعد ذلك كانوا ينشئون

الدور حول ذلك الخلاء على أساس تقسيم الأرض إلى قطع لكل قبيلة قطعة تسمى خطة أو دار . وسميت هذه المدينة القيروان ، وهو لفظ فارسي معرب بمعنى المعسكر أو مستودع السلاح . ويقال إن موضع القيروان كان غابة وشعاري<sup>(١)</sup> ، فقام عقبة وأصحابه بتمهيد الأرض وقطع تلك الأشجار ، وتحكى أسطورة أن عقبة بن نافع قام بكرامات أثناء إنشاء تلك المدينة فأمر الوحوش والهوام التي كانت في الشعاري بأن تخرج منها لأن المسلمين ينشئون مدينة رسول الله ﷺ ، فخرجت الوحوش والهوام من تلقاء نفسها ، وبذلك أصبحت المدينة الجديدة وهو مدينة القيروان مدينة جليلة ومباركة ، وبالفعل قدر لذلك المصر الصغير أن يصبح من أكثر المراكز الإسلامية بركة على الإسلام وأهله ، فقد تحولت القيروان بسرعة إلى قاعدة سياسية ودينية وفكرية للإسلام في أفريقية ، وقد تحرى عقبة أن تكون المدينة ملائمة لمطالب العرب في ذلك العصر ، وقد كان أهم ما لديهم هو الخيل والجمال وهي سلاحهم الأكبر في عمليات الفتوح ، فكانوا يهتمون بأن تكون الأمصار أو المراكز التي ينشئونها وسط أقاليم مراع لتسرح فيها الخيول والجمال في غير أوقات الحروب ليستجم الظهر كما كانوا يقولون ، ولا بد أن نذكر أنه كانت في أفريقية في ذلك الحين عاصمة أخرى وهي قرطاجنة وكانت ميناء ، وهي عاصمة الروم الذين تلاشت قوتهم السياسية والعسكرية ، ولكن قرطاجنة وبقية مدن السواحل من أمثال قابس وسوسة ظلت عامرة بالروم والأفارقة وغيرهم من سكان الشريط الساحلي .

المهم لدينا أننا لا نلاحظ أى وجود فعلى للروم أثناء عملية إنشاء القيروان التي دامت خمس سنوات من ٥٠ - ٥٥ هـ / ٦٧٠ - ٦٧٥ م . وبعد فراغ عقبة من إنشاء تلك القاعدة بدأ يستعد لمواصلة الفتوح ، إذ أنه اطمأن إلى أنه أنشأ للمسلمين قاعدة يحكم منها البلاد التي يفتحها وتصدر منها الغزوات . ومعنى ذلك أن عقبة بعمله هذا قد جعل أفريقية ولاية إسلامية جديدة ، لأنه ما دام قد أنشأ بها مسجداً جامعاً وداراً للإمارة فقد أصبحت المنطقة كلها جزءاً من الدولة الإسلامية ، ولا يجوز بعد ذلك للمسلمين أن يتخلوا عن هذه الناحية ، وبالفعل

(١) الشعاري : هو المكان به الشجر الكثيف الملتف .

كان من الممكن للعرب قبل ذلك أن ينسحبوا من أفريقية إلى برقة أو إلى مصر كما كانوا يفعلون من قبل ، أما الآن فلا بد لهم أن يثبتوا في هذه الناحية ، وإن فقدوها لسبب ما فيجب عليهم أن يستعيدوها مرة أخرى لأنها جزء من الديار الإسلامية .

ومن هذا يتبين لنا أهمية العمل الذي قام به عقبة بن نافع الذي يعتبر بحق من أعظم فاتحي المغرب وواحد من أكبر بناءة الدولة الإسلامية . ولا يقارن عقبة في هذا المجال إلا بـ « قتيبة بن مسلم الباهلي » الذي تولى مهمة مماثلة في الجناح الشرقي لدولة الإسلام . وإليه يرجع الفضل في التغلب على مقاومة الترك الوثنيين وفتح بلادهم للإسلام والوصول به إلى كاشغر في إقليم سنكيانج في غرب الصين الحالية . وكان عقبة وقتيبة متعاصرين : واحد منهما وصل بحدود دولة الإسلام إلى أقصاها غرباً والثاني وصل بها إلى أقصاها شرقاً .

#### ولاية أبي المهاجر دينار :

وكنا نتوقع أنه بعد أن قام عقبة بهذا العمل المجيد أن تكافئه الدولة بأن تتركه في ولايته ليتم ما بدأه ، إلا أنه بدلا من ذلك يتلقى أمراً بالعزل من ولاية أفريقية سنة ٥٥ هـ / ٦٧٥ م . وكان الذي عزله معاوية بن أبي سفيان بناء على طلب والي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري وكان من كبار العثمانية وأنصار البيت الأموي الذين أعانوا معاوية على الوصول إلى الخلافة ، فكافأه معاوية بولاية مصر ، وعندما رأى مسلمة أن أفريقية أصبحت ولاية وميداناً جديداً واسعاً للفتوحات طمحت نفسه إلى أن يحوزها ، فسعى في عزل عقبة وتولية رجل من أتباع مسلمة ابن مخلد يسمى دينار أبا المهاجر ، ويظن أنه كان ممن أسلم من أهل مصر ، ولم يكتف مسلمة بعزل عقبة بل نجد أن ديناراً أبا المهاجر يسىء معاملة ذلك الفاتح الكبير ويترك القيروان وينزل بقرية صغيرة قريبة منها تسمى تكيروان رغبة منه في التقليل من أهمية العاصمة الجديدة ، لأن مسلمة كان يرى أن الغرب الإسلامي كله تبع له ، ومن ثم فلا تكون له إلا قاعدة واحدة هي الفسطاط ، وذهب عقبة إلى دمشق وشكا إلى الخليفة فطيب خاطره ولكنه لم يرده إلى ولايته .

وأما دينار أبو المهاجر فقد تبين أنه من خيرة الولاة رغم تصرفه مع عقبة .

وواضح أنه غير مسئول عن ذلك وإنما المسئول هو مسلمة بن مخلد ، وإن كان مسلمة قد اعتذر لعقبة عن سوء صنيع دينار أبي المهاجر معه .

انتهج أبو المهاجر سياسة جديدة في الفتح ، فقد كان عقبة رجلاً متشدداً بعيداً عن السياسة وفهم تصاريدها ، أما أبو المهاجر دينار فنجدته في أعماله العسكرية يتجه إلى كسب مودة أهل البلاد من البربر ، وهو لم ينتهج نهجاً معيناً أو محدداً في أعماله العسكرية ، لأنه كان رجلاً نشيطاً يرسل الغزوات في كل وجه ، وقد وصلت غزواته إلى مسافة بعيدة في الغرب حتى وصل إلى تلمسان وهي أكبر قواعد القسم الشرقي من المغرب الأوسط ، أى تلك المنطقة الواقعة حالياً إلى الشرق من نهر المولوية الذى قلنا : إن الحد الفاصل بين المغربين الأوسط والأقصى يمر شرقه بقليل . وفي هذه الناحية - تلمسان - كانت منازل قبيلة من أكبر قبائل البربر البرانس في ذلك العصر وهي أوربة ، وهي قبيلة برنسية أى من قبائل الحضرة وكانت تسيطر على المغرب الأوسط كله يتزعمها زعيم بربرى يسمى كسيلة بن لَمَزَم ، وقد دخل هذا الرجل الإسلام ومعه قبيلته الكبيرة على يد أبي المهاجر دينار . ودخول أوربة وزعيمها كسيلة في الإسلام يعد حدثاً هاماً لا بد من ملاحظته . حقيقة كان الإسلام ينتشر في المغرب منذ الأيام الأولى لدخول المسلمين ، وخاصة عندما رأى البربر عقبة بن نافع وهو ينشئ القيروان فتأثروا بشخصيته الدينية وبما كان يظهره من التفانى في سبيل الإسلام ، فدخلت جماعات كبيرة منهم الإسلام على يديه وانضمت إلى قوات الإسلام المحاربة ، ولكن إسلام أوربة يعتبر حدثاً تاريخياً هاماً في تاريخ إسلام المغرب ، فهذه أول مرة تدخل قبيلة برنسية كبيرة في الإسلام ، وكان معظم من دخل الإسلام قبل ذلك من البربر البتر أى البدو من قبائل لواتة وهوارة ونفوسة وغيرها ، ومضى كسيلة بعد أن أسلم مع صاحبه دينار أبي المهاجر إلى القيروان .

### ولاية عقبة بن نافع الثانية على أفريقية وحملته الكبرى

على المغرب ٦٢ - ٦٤ هـ / ٦٨١ - ٦٨٣ م :

استمرت ولاية دينار أبي المهاجر سبع سنوات ، ولم تنته إلا بوفاة معاوية ابن أبي سفيان سنة ٦٠ هـ / ٦٨٠ م ، وبوفاة معاوية فقد مسلمة بن مخلد

نصيره فلم تعد له تلك المكانة التي كانت له أيام معاوية ، وانتهز عقبة هذه الفرصة وتحدث إلى يزيد بن معاوية في إعادته إلى أفريقية ، فأجابه إلى مطلبه ، وأسرع عقبة إلى المغرب ومعه قوة تقدر بحوالى ٤٠٠٠٠ فارس وقد صمم هذه المرة على أن يشرع في الفتح مباشرة مخافة أن يفاجئه عزل جديد .

وعندما وصل عقبة إلى أفريقية قبض على دينار أبى المهاجر وعلى صاحبه كسيلة وتلك كانت من أخطائه الجسيمة ، لأن كسيلة كان رجلاً مسلماً وليس ذنبه أنه كان صاحباً لأبى المهاجر ، ومن ثم فلم يكن عقبة على حق في سوء معاملته . على أى حال نجد عقبة رغم ما اتصف به من إثارة وإيمان وشجاعة وبُعد عن شئون هذه الدنيا لم يعرف كيف يغفر لأبى المهاجر ما صنعه به ، ورغم ما تميز به من بعد نظر فيما يتعلق بمواصلة فتح المغرب وإدخاله في الإسلام ، نجده قصير النظر في شئون السياسة ومعاملة الناس ، فأخذ كسيلة معه - مصفداً بالحديد كما يقال - وأساء معاملته رغم أن ديناراً أبا المهاجر كان ينصحه بإحسان معاملة ذلك الرجل ، تأسياً بما كان يفعله الرسول ﷺ في استئلاف حديثى العهد بالإسلام فقد كان إيمانهم قريباً أو قريب عهد ولا بد من تحبيبهم في الإيمان وهم المؤلفة قلوبهم ، ولكن عقبة في حماسه الشديد للفتح وتغانيه فيه لم يلتفت إلى النصيح وسار في جموعه نحو المغرب الأوسط .

وبدلاً من أن يتخذ في سيره الطريق الأسهل ، فيسير على الشريط الساحلى نجده يخترق الجبال ويغزو البربر في عقر دارهم فيدخل جبال الأوراس وهى الطرف الشرقى لجبال الأطلس وهى جبال عالية وعرة كثيرة المضائق والأخاديد فى هذه الناحية ، وكانت تعيش فيه جماعات من الروم ممن هربوا إلى داخل البلاد واتصلوا بالبربر ليتعاونوا معاً على المسلمين ، ولكن عقبة لم يكثر لهم ، ومضى يقتحم جبال الأوراس موغلاً فى بلاد هى الغاية فى وعورة الأرض وصعوبة المسالك .

دخل عقبة جبال الأوراس وبدأ بمحاصرة حصن يسمى باغاية وكان فيه عدد من الروم إلى جانب البربر ، وعندما وجد عقبة صعوبة فى الاستيلاء على باغاية تركها واندفع ناحية الغرب ، فعبر نهر شلف ، وهو يحارب القبائل فى طريقه

ويفض جموعها ويلقى الرعب في قلوب أهلها ، وفي نفس الوقت يجتذب الكثيرين من أفرادها للإسلام بفضل ماكان يبذو عليه من التقوى والتفانى في سبيل الإسلام ، واستمر في طريقه غير عابىء بالمقاومة مهما اشتدت حتى وصل إلى قرب طنجة ، أى أن ذلك الرجل قطع في شهور قليلة وخلال جبال وعرة تسكنها قبائل ضخمة مسافة تقدر بأربعة آلاف كيلو متر ، وظهر أمام طنجة وهى مفتاح المدخل الغربى للبحر المتوسط .

هنا يلقي عقبة عند طنجة شخصية غريبة تسمى يليان – والقراءة مشكوك فيها – ولا نعرف عن ذلك الرجل أى شىء يعول عليه ، فهناك من يقولون إنه كان ممثلاً للسلطان الرومى – البيزنطى في ذلك الطرف الأقصى من البحر المتوسط – وهناك من يقولون إنه كان ممثلاً للقوط الغربيين الذين كانوا يحكمون شبه جزيرة أيبيريا في ذلك الحين وهذا أقرب الأحوال إلى القبول ، وهناك رأى ثالث يقول إنه بربرى تزعم قبيلة غمارة الكبيرة التى ستدخل في الإسلام وسيكون لها في تاريخ المغرب شأن كبير . وربما كان اسم يليان تسمية عامة تطلق عند العرب على حاكم إقليم طنجة أياً كان . فبعد ثلاثين عاماً من ذلك التاريخ ، وفي ولاية موسى بن نصير في أثناء أعمال فتح الأندلس سنلقى يليان هذا مرة أخرى وسيكون له شأن مع موسى وطارق ، وكذلك سيكون له دور في فتح الأندلس . على أى حال نجد أن عقبة يتفاهم مع ذلك الرجل ويقول له يليان : لقد تغلبت على الروم وليس أمامك الآن إلا البربر فعليك الآن أن تنحدر إلى الجنوب فهناك مواطن البربر الحقيقيين .

ولم يكذبه عقبة ، فاتجه إلى الجنوب ، وبنفس البسالة التى عرفناها فيه نجده يخترق مواطن البربر المصامدة من شمال المغرب الأقصى إلى جنوبه مخترقاً جبال الأطلس التى تسمى هنا جبال درن وفي طريقه يهزم القبائل وينشئء المساجد ويقبل عليه الناس رغياً أو رهباً ليعلنوا إسلامهم . وعندما يصل ذلك الرجل إلى قلب بلاد المصامدة في جبال درن نجده يدور دورة واسعة وسط الجبال ثم يتجه غرباً ، وينحدر نحو المحيط إلى جنوب المدينة الحالية المعروفة باسم أغادير التى تقع على مصب وادى السوس ، وهناك وعند قرية صغيرة على

البحر تسمى « أيغيران يطوف » نرى المشهد التاريخي الشهير وهو مشهد عقبة يدخل بحصانه في مياه المحيط الأطلسي ويشهد الله على أنه وصل براءة الإسلام إلى آخر المعمورة ، وأنه لو وجد طريقاً لسار إلى البلاد التي وصل إليها - في زعم القصاصين - ذو القرنين عند مغرب الشمس .

وبعد أن وصل عقبة إلى هذه النتيجة التي لا تصدق نجده يعود أدرجه مخترقاً بلاد البربر مرة أخرى ، وعندما يصل إلى نهر تانسيفت وهو النهر الذي تقع على أحد نهيراته مدينة مراكش الحالية ، وعند بليدة تسمى نفيس ينشئ مسجداً وهو الذي عرف فيما بعد باسم مسجد « أغمات أوريقة » ولا زال ذلك المسجد باقياً إلى اليوم ويقال إن منبره يرجع إلى تلك الأيام . وعندما وصل عقبة إلى وادي أبي الرقراق الذي تقع على مصبه الآن مدينة الرباط ينشئ رباطاً أي معسكراً للمرابطين ، أي الذين يرباطون على ثغور ديار الإسلام ليحرسوها ويذودوا الأعداء عنها حسبة الله سبحانه وتعالى ، ويسمى هذا الرباط برباط شاكر ، وهو أحد قواده ، وهناك ترك عقبة شاكراً هذا ليعلم الناس مبادئ الإسلام ، ثم يواصل مسيرته عائداً إلى القيروان ، فنجد أن الكثيرين من جنوده يستأذنونهم في الإسراع إلى القيروان فقد طال غيابهم عن أولادهم وأهلهم فيأذن لهم ويبقى في عدد قليل من رجاله .

وبينما كان عقبة منصرفاً إلى مغامرته العسكرية الدينية الكبيرة تلك كان خصومه يكيدون له ، وكان معه في الجيش كما قلنا دينار أبو المهاجر وصاحبه كسيلة بن لمزم الأوربي فلما اقتربوا من بلاد قبيلة أوربة هرب كسيلة وعاد إلى قومه ، وجمعهم وتتبع عقبة ليقوع به عندما تسنح له الفرصة ، وعندما وصل الجيش الإسلامي الصغير إلى سهل تهوده جنوبي واحة بسكرة الحالية إلى جنوب مدينة الجزائر وجد عقبة نفسه محاصراً بجماعات غفيرة من البربر والروم ، وقد تجمعوا وتعاونوا بفضل كسيلة للانتقام من ذلك الرجل المجاهد عقبة ، وهناك قرب نهر صغير يسمى وادي الأبيوض وجد عقبة أنه لا مفر من الاستشهاد فأمر رجاله بأن يترجلوا عن خيولهم ، وذلك دليل على توطين النفس على القتال إلى الموت وطلب إليه أبو المهاجر أن يفك قيوده لكي يموت في سبيل الإسلام ، وخاضت هذه

الجماعة الصغيرة معركة الموت ببسالة ، فقتلوا عن آخرهم ، وتلك كانت نهاية ذلك الرجل عقبة بن نافع سنة ٦٤ هـ / ٦٨٢ م . وهى نهاية جديدة بحياة رجل مثل عقبة بن نافع ، وهذه النهاية على الرغم من أنها كانت هزيمة عسكرية إلا أنها فى واقع الأمر كانت بعيدة الأثر فى إسلام أفريقيا والمغرب ، فقد كان ما أبداه عقبة ورجاله من البسالة فى ذلك الاستشهاد أوقع أثراً فى نفوس البربر ، وهم قوم ذوو بأس وإعجاب بالأبطال وكانت نتيجة هذا الاستشهاد المجيد أن دخل البربر جماعات فى الإسلام ، وتلك هى نهاية أسطورة عقبة أو سيدى عقبة بطل الإسلام الأكبر فى تاريخ الفتوح فى الجزء الغربى من العالم الإسلامى .

### زهير بن قيس والقضاء على كسيلة :

لم تستطع الخلافة الأموية أن تهتم بأمور أفريقية إثر مقتل عقبة بن نافع واحتلال كسيلة للقيروان إلا بعد وقت طويل ، لأن ظروف الدولة لم تسمح بذلك . لقد توفى يزيد بن معاوية وخلفه ابنه معاوية الثانى ، ثم انتهى الأمر إلى مروان بن الحكم ، وثار عليه عبد الله بن الزبير وبعد انتصار مروان على أنصار عبد الله بن الزبير بقليل ، توفى مروان وخلفه ابنه عبد الملك وشغل باستعادة العراق من الزبيريين ، وهدأت الأحوال شيئاً فشيئاً ابتداء من ٦٨ هـ / ٦٨٧ م ، وثبتت أركان خلافة عبد الملك واتسع أمامه الوقت ليقوم بعمل فى أفريقية ، وكان زهير بن قيس الذى خلف عقبة منتظراً فى برقة أن تاتيه الإمدادات لكى ينهض إلى أفريقية من جديد .

وأرسل عبد الملك إلى زهير جيشاً قوياً ، وبعث إليه بالأموال من مصر ، فنهض سنة ٦٩ هـ / ٦٨٨ م متجهاً إلى أفريقية ، وعندما دخلها عسكر فى ناحية تسمى قمودة ، وهى شبه جزيرة بارزة فى البحر من الساحل الشرقى لتونس الحالية ، وكان من عادة العرب فى تلك الظروف أن تتحصن جيوشهم فى مثل ذلك الموقع أو فى ثنية من النهر وذلك لقلّة أعدادهم . وكان كسيلة قد جمع قوى ضخمة من البربر والروم وسار بهم لحرب زهير . وفكر زهير فى الانسحاب ، ولكن قادة الجيش الآخرين شجعوه على الثبات وحفزوه على المسير للقاء كسيلة . وفعلاً تم اللقاء بين الجانبين ، وجرت معركة من أشد ما مر بالعرب فى أفريقية إلى ذلك الحين ، فقد فنى فيها الألوف من الجانبين ، وخرج المسلمون كعادتهم فى ذلك

العصر منتصرين ، وقتل كسيلة ونفر كبير من كبار الروم والبربر ، وطارد المسلمون فلول المنهزمين إلى مسافات بعيدة .

بعد ذلك عاد زهير إلى القيروان ليرتب أمورها ويصلح من أحوال المسلمين بها وبعد أن تم له من ذلك ما أراد نجده يعلن أنه عائد إلى الشرق ولا ندرى ما السبب في ذلك القرار ، لأن زهيراً كان يستطيع - بل كان لابد له - أن يقيم في أفريقية والياً عربياً لها . ولكن يبدو أنه لم يكن مستريحاً للمقام في تلك البلاد ولم تكن الدولة الإسلامية قد حددت بعد سياستها فيما يتعلق بأفريقية .

ولابد أن نذكر أن بلاد أفريقية في ذلك العصر كانت بلاداً بعيدة جداً عن نظر العرب ، خاصة وهي ميدان حرب عنيفة مع البربر من ناحية والروم من ناحية أخرى ، لهذا أزمع زهير العودة وشرع فيها فعلاً ، وعندما خرج زهير سمع أن الروم عادوا إلى طرابلس وأنزلوا قوة فيها . وكان زهير قد ترك جيشه يسير قطعاً صغيرة منسحباً إلى مصر وعندما اقترب من طرابلس كان قد بقى في سبعين رجلاً فقط من خيرة رجاله ، ورأى الروم يعودون إلى مراكزهم ومعهم أسرى المسلمين وما نهبوه من الأموال ، وأراد زهير أن ينتظر حتى يتكامل الجيش ليهاجم الروم ، ولكن شباب المقاتلين حفزوه على الهجوم وعيروه بالجبن عن اللقاء فما كان منه إلا أن انقض بمن معه على الروم ، وكانت النتيجة واضحة منذ البداية فقد استشهد هو وكل من معه ، وهكذا أصيب المسلمون بكارثة ثانية في فتوح أفريقية ، وانسحب الباقون من رجال زهير إلى برقة وأرسلوا يطلبون المدد من دمشق للعودة إلى أفريقية .

### حملة حسان بن النعمان الغساني والقضاء على آخر مظاهر

المقاومة الفعلية للفتح العربي ، وثبوت أقدام المسلمين نهائياً في

أفريقية ٧١ - ٨٥ هـ / ٦٩٠ - ٧٠٤ م :

بعد أن انتهت فتنة ابن الزبير واستقر الأمر لعبد الملك بن مروان بصورة نهائية تجدد عزمه على مواصلة الفتوح في ذلك الجناح الغربي لدولة الإسلام ، ونلاحظ أنه في عصر عبد الملك بن مروان كان هناك تنافس شديد بين العاملين في

الفتوح في الشرق وعلى رأسهم الحجاج بن يوسف الثقفي والعاملين في المغرب وعلى رأسهم عبد العزيز بن مروان أخو الخليفة وولى عهده وواليه على مصر. كان كل من الجانبين يحاول أن يتفوق على الآخر بما يفتح من البلاد ، وهو تنافس محمود يرجع الفضل إليه فيما وفقت إليه دولة الإسلام في عصر عبد الملك وابنه الوليد ، وقد كانت نتيجة هذا التنافس فتح بلاد زادت من ناحية الأهمية والاتساع على كل ما فتحه المسلمون في العصر الراشدي بعد فتوح إيران ، فقد وصل المسلمون إلى غربى الصين ودخلوا حوض السند من ناحية الشرق على أيدي الفاتحين الكبار مثل قتيبة بن مسلم الباهلى ومحمد بن القاسم .

أما في الجناح الغربى ، وهو موضوع حديثنا الآن فقد بدأ عصر جديد من الفتوح بفضل ما قام بعد عقبة بن نافع ومن جاء بعده من كبار الفاتحين ، وأول أولئك الفاتحين الجدد حسان بن النعمان الذى سيتولى القضاء على المقاومة الفعلية للروم والبربر في أفريقية .

كان حسان من كبار رجال عبد الملك ، وكان رجلاً شريفاً ينتسب إلى آل غسان ولهذا كان لقبه الغسانى ، ومع علو سنه إلا أن شخصيته وخبرته وأمانته مكنته من القيام بهذه المهمة التى وكلتها إليه الخلافة ، فسار فيمن معه نحو كسيلة والتقى الجانبان في معركة حاسمة سنة ٧٤ هـ / ٦٩٣ م وانهزم كسيلة وقتل ، وبعد التخلص من كسيلة بدأ حسان فى تنظيم أمور أفريقية ووجه همه إلى الروم وكانت حاميتهم لا تزال قوية فى قرطاجنة فوجد حسان أنه لا بد من الاستيلاء على ذلك البلد وتم له ذلك فعلاً ، ثم هدم منشآت الميناء حتى لا تعود إليه أساطيل الروم وعاد حسان بعد ذلك إلى القيروان ، وبعد أن استراح فترة قصيرة كان يحسب أن كل مقاومة فعلية قد انتهت وأن أوان التنظيم قد حان ولكنه فوجئ بما لم يكن فى حساب أحد .

### الكاهنة :

ذلك أن زعيمة بربرية ظهرت فى الميدان تتحدى العرب يسميها العرب الكاهنة ولا نعرف نحن اسمها على وجه الدقة فإن بعض المؤرخين يسمونها داهيا بنت

وامهيا ، ولكن هذه تسمية مأخوذة من القصص الشعبي ولا شك . ظهرت هذه المرأة في جبال الأوراس على رأس قبيلة من أكبر قبائل البتر الزناتية تسمى قبيلة جراوة وتحدث العرب وأعلنت أنها لن تستريح حتى تخرجهم نهائياً من بلاد أفريقية ، ويبدو أن هذه المرأة عندما رأت أن العرب كسروا شوكة البرانس بالقضاء على كسيلة ، قدرت أن دورها قد جاء فرأت أن تبادل العرب قبل أن يبادروها .

يصور المؤرخون العرب هذه المرأة في صورة هي أقرب إلى شخصيات الأساطير ، فالكاهنة هذه ساحرة شديدة السمرة في حوالى الخمسين من عمرها وهي امرأة ذات شخصية خلابة ولها قدرة على الإتيان بأعمال السحر والكهانة والتنبؤ بما سيحدث . وبطبيعة الحال كان ذلك الخبر مفاجأة لحسان ، ولكنه بما عرف عنه من البسالة وبعد النظر عرف أن هذه المرأة من الممكن أن تسبب للعرب متاعب كبيرة ، لأنها كانت متحصنة في جبال الأوراس ، وهي الطرف الشرقي لجبال الأطلس بجمهورية الجزائر في إقليم قسطنطينة وما يليها شمالاً وجنوباً ، وكان من الممكن لهذا أن تسبب متاعب جديدة للعرب ، ولهذا نجد حساناً يتجه نحوها والتقى معها في معركة حامية ينهزم فيها حسان ويضطر إلى الارتداد إلى برقة ، لأن تلك المرأة طارده حتى أخرجته من أفريقية وطرابلس ، وهناك في برقة تحصن حسان وبنى بيوتاً تسمى قصور حسان وأرسل للخليفة يطلب المدد .

أما الكاهنة فقد اطمأنت إلى أن العرب قد ابتعدوا عن بلادها فعادت إلى مواطنها . وظنت أن العرب لا يطلبون من هذه البلاد إلا المغانم ، فقررت تخريب الطريق الذى يسلكه العرب حتى لا يبقى لهم مطمع في أفريقية فأمرت رجالها بقطع الأشجار وتهديم القرى وإحراق الزروع فكان لعملها هذا أسوأ الأثر على حركتها ، لأن أصحاب الأشجار والزروع والقرى كانوا من البربر الحضر أى البرانس فنفروا منها نفوراً شديداً وأرسلوا إلى حسان يستغيثون به . وكانت الكاهنة قد أسرت نفراً من رجال المسلمين من بينهم رجل يدعى خالد بن يزيد فتبنته واتخذته مشيراً لها .

وعندما وصلت إلى حسان الإمدادات سنة ٧٩ هـ / ٦٩٨ م نهض للقاء

الكاهنة وإنقاذ المسلمين في أفريقية ، وكذلك لإغاثة البربر الذين استنجدوا به فزادت الكاهنة في عمليات التخريب حتى جعلت البلاد التي تعرف بتونس الآن خراباً ويسمى المؤرخون ذلك بخراب أفريقية الأول ، وسيكون هناك خراب ثانٍ لأفريقية على يد العرب الهلالية في القرن الخامس الهجرى كما يقولون ، ويذهب المؤرخون الفرنسيون إلى القول بأن ذلك التخريب الأول لم يتم على أيدي الكاهنة وإنما قام به العرب أنفسهم ونسبوه إلى الكاهنة معتمدين في ذلك على بعض آراء خاطئة لابن خلدون يقول فيها : « إن العرب إذا دخلوا قطراً عامراً خربوه » ومن أقواله أيضاً : « إذا عربت خربت » ، وذلك في إطار تفكيره عن الصراع بين البدو والحضر وقوله هذا داخل فيما يسمى بدورة العمران .

هذه كلها آراء غير سليمة في جملتها ، وخاصة فيما يتصل بكلامه عن موقف العرب من الحضارة وزعمه أنهم لا يتغلبون إلا على البسائط ( جمع بسيط ) وذلك كله ينبغي أن يكون اليوم موضع دراسة جادة منا نحن العرب<sup>(١)</sup> . المهم لدينا أن الكاهنة أنزلت خراباً واسعاً بأفريقية .

ويذكر المؤرخون العرب وخاصة عبد الرحمن بن عبد الحكم « أن أفريقية كانت ظلاً واحداً من برقة إلى طنجة فخربت ذلك كله الكاهنة » ، هذه أيضاً مبالغة وعدم فهم من ابن عبد الحكم - فأولاً : لم تكن أفريقية بهذا العمران عند الفتح العربى . وثانياً : ليس من المعقول أن تخرب امرأة واحدة ذلك العمران كله ، ونستطيع اليوم تفسير هذه الظاهرة أن نقول : إن الكاهنة بالفعل قامت ببعض أعمال التخريب للأسباب التي ذكرناها ، واستمر التخريب بعد ذلك لسوء الحكم وسياسات الولاة وما سنرى من الصراع السياسى الشديد بين العرب فيما بين بعضهم وبعض من ناحية ، وبين العرب والبربر من ناحية أخرى .

ثم كان اللقاء الحاسم بين حسان والكاهنة وسط جبال الأوراس وكان خالد بن يزيد يرأسل حساناً ويبلغه سرا بأحوال الكاهنة وتذمر الناس من أعمالها وأحسَّتْ هي بأنها لن تستطيع الصمود أمام العرب مرة أخرى وتنبأت أنها

( ١ ) أى لا بد لنا من إعادة النظر في آراء ابن خلدون هذه .

مقتولة ، فنادت خالد بن يزيد وطلبت إليه أن يستأمن لولديها عند حسان وفعل خالد بن يزيد ذلك، أما هي فصمدت وقالت إنها لا يبد أن تحارب حتى الموت لأن الملوك لا يستسلمون، وفي سنة ٨٠ هـ / ٦٩٩ م ، أى بعد عودة حسان إلى أفريقية بنحو عام ، دارت المعركة الحاسمة في موضع من جبال الأوراس لا نعرفه على وجه التحديد ، ولكن المؤرخين يقولون إن المعركة كانت عند نهر نينى ولا نعرف نهراً في أفريقية أو المغرب بهذا الاسم . على أى حال قضى العرب ببسالتهم المعروفة على جيش الكاهنة وقتلوها وقضوا بذلك على المقاومة الفعلية للبربر في ذلك الجناح الغربى من الدولة الإسلامية .

وليس معنى ذلك أن مقتل الكاهنة كان آخر لقاء بين العرب والبربر ، لأنه بقيت أمامنا فصول طويلة من الصراع في المغرب ثم في الأندلس حتى تستقر سيادة العرب والإسلام على كل الجناح الغربى لدولة الإسلام كما سنرى .

وعاد حسان بعد ذلك النصر إلى القيروان وقد حزم أمره على أن يتم عمله بالقضاء على كل بقية الروم في أفريقية فاستولى على بلدة قرطاجنة وخربها تماماً وفرت بقايا الروم إلى صقلية وجزر البحر ولم يبق لهم بعد ذلك في المغرب إلا بقايا قليلة اندرجت في السكان ، ولا نسمع بعد ذلك عن حركة ذات شأن لهم .

**تنظيم الإدارة الإسلامية في المغرب وبداية التحول الفعلى لأهل البلاد**

**إلى الإسلام :**

هكذا أتم حسان بن النعمان فتح أفريقية والمغرب الأوسط ، ورأى أن عليه قبل أن يسترسل في الأعمال العسكرية أن ينظم هذه البلاد الواسعة التى دانت للإسلام بعد ما يقرب من ٦٠ سنة من الصراع الدموى ، فقد بدأ فتح المغرب على يد عمرو بن العاص سنة ٢١ هـ / ٦٤٢ م وهما نحن مع حسان بن النعمان عام ٨٢ هـ / ٧٠١ م .

وبعد تنظيم مدينة القيروان وإعادة بناء مسجدها وتوسيعها على نحو تتسع معه لجموع العرب والمسلمين التى سكنتها ، نظر حسان في موضوع التنظيم الإدارى والمالى .

وهنا واجه حسان مشكلة لم يواجهها غيره من حكام المسلمين في الغرب إلى الآن . ذلك أن الذين فتحوا مصر مثلاً دخلوا بلداً منظماً بالفعل من الناحية الإدارية مقسماً إلى ما يمكن أن نسميه مديريات أو محافظات ، وكانت تسمى في ذلك الحين بالكور جمع كورة ، فما كان عليهم إلا أن يدخلوا ما تمس إليه الحاجة من التعديلات على هذا النظام وتعريب الدواوين والنظم دون صعوبة تذكر ، هكذا فعل الذين فتحوا العراق أو فارس أو مصر وغيرها من البلاد ذات التنظيمات الإدارية والمالية المتوارثة القديمة ، أما في المغرب فقد وجد العرب أنفسهم في بلاد لم يسبق تنظيمها لإدارياً ولا مالياً ، كذلك لم يسبق لها أو لأهلها أن عرفوا شيئاً يسمى تنظيماً من أى نوع ، لأن أساس أى تنظيم من هذا النوع هي الوحدات الإدارية القديمة وعواصمها وما جرت به العادة قبل الفتح العربى في تسيير أمور الناس والدولة ، أما في أفريقية وطرابلس والمغرب الأوسط فما كان هناك تنظيم إلا على الساحل ، أما العرب فقد أوغلوا في البلاد وفتحوا مواطن البربر في دواخل البلاد وهم قبائل ، والقبائل لا تعرف العواصم ولا الضرائب ، لأن القبائل بطبيعتها لا يمكن ضبطها كما يضبط أهل الأراضى المزروعة . هنا نجد أن حسناً يلجأ إلى ما لجأ إليه المسلمون في تنظيم الجزيرة العربية ، فهذه أيضاً بلاد كانت قبائل ، وإذا كانت الوحدة الإدارية والمالية في بلاد الحضر هي الكور أو المديریات وعواصمها وما يتبع كل عاصمة من زمام أو حوز ، فإن الوحدة في بلاد البدو والقبائل هي القبيلة ونطاقها ومجالها الحيوى ، لأن القبائل كما سبق أن ذكرنا تعيش في صحاريها ولكل منها مجالها ، والمجال يتحدد بموارد المياه ومواضع الكلا التي توجد في المجال ، والقبيلة تتحرك طوال العام في مجالاتها حسب نظام معروف في الحياة البدوية ، وهي ليست حياة فوضى وبدائية مطلقة وإنما هي حياة منظمة وفق النظام المعروف في كل مناطق البدو في الدنيا ، ومن الخطأ أن نتصور أن هناك قبيلة كانت تنتقل في شبه الجزيرة باستمرار وبدون توقف ، لأن ذلك منطقياً غير ممكن ، واجتماعياً مستحيل . ولم نسمع قط أن قبيلة عربية خرجت من حضرموت واستمرت في التنقل حتى الشام . وإنما كانت هناك لكل قبيلة منطقتها الخاصة بها المعترف بها من جاراتها ، وعيون الماء في هذه المنطقة ملك للقبيلة وهي تنتقل في مجالها هذا بقطعانها وخيامها وكلما أكلت

القطعان الحشائش في موقع انتقلت القبيلة إلى غيره في مجالها . وكانت العادة أن يكون لكل قبيلة في مجالها مشتى ومصيف فالمشتى في القيعان والوديان حيث يتجمع ماء المطر وتنبت الحشائش ، والصيف في أعلى التلال والجبال وسطوحها حيث الجو مقبول محتمل في الصيف والحشائش التي نبتت على أمطار الشتاء جافة تصلح للرعى .

لهذا نجد أن الفاتح العربي للمغرب رأى أن أحسن الطرق لتنظيم هذه البلاد هو أن يعتمد على الخطوط الرئيسية للتنظيم السياسي القديم الذي كان لا يشمل إلا جزءاً صغيراً من الساحل ، فأقر تنظيمه على ماجرى الأمر عليه مع تعديل طفيف اقتضته ظروف الدولة مثل نقل العاصمة من قرطاجنة إلى القيروان .

وبعد ذلك قسم العرب الدواخل على أساس منازل القبائل ، أى اعتبار مجال كل قبيلة كبيرة قسماً إدارياً والاتفاق مع رؤساء القبائل على مقادير الجبايات ومواعيدها وتكليف أولئك الرؤساء بحماية القضاة والموظفين الآخرين الذين ترسلهم الدولة ومعاونتهم على تنفيذ أحكامهم والقيام بمسئوليات ووظائفهم .

وبطبيعة الحال في بلاد مثل بلاد المغرب تنقسم طبيعياً إلى أشرطة أو مناطق عرضية موازية للسواحل تقريباً ، وقد ذكرناها فيما سبق ، كان لابد من اتخاذ بعض المدن والقرى الصغيرة الداخلية القائمة في هذه النطاقات أساساً من أسس التنظيم ، أى اعتبارها قواعد إدارية لما يحيط بها من الأراضى ، وعلى هذا فإن حسان بن النعمان قسم بلاد المغرب إدارياً كما يلي :

١ - فيما يتصل بإقليم بركة وهو الذى قلنا إنه يعرف في القديم باسم سيريناىكا ( يسمى حالياً باسم إقليم بنغازى ) هذا الجزء اعتبر تابعاً لمصر من الناحية الإدارية والمالية ، ولكننا لا نلاحظ أثراً لذلك فيما يمر بنا من أحداث الفتح وعصر الولاة ، بمعنى أن بركة أصبحت إقليمياً في الظل ، يختفى في معظم الأحيان ولا يظهر إلا في مناسبات قليلة ولا نكاد نسمع به إلا ابتداء من الغزوة الهلالية ، وما كان لبعض بطون الهلاليين وحلفائهم من شأن فيها ، وفيما عدا ذلك فإننا لا نسمع ببرقة إلا قليلاً ، ومع ذلك فمن الثابت أنها كانت وحدة سياسية قائمة بذاتها ، والأرجح أنها كانت مستقلة عن كل سلطان خارجي وإن لم يكن

لدينا تاريخ لها في تلك العصور الأولى ، وكانت تمتد من ساحل البحر إلى زويلة في المداخل الشرقية لإقليم فزان ، وكانت قاعدته السياسية مدينة برقة ، ولكن كتب الرحالين تحدثنا عن انتظام الحياة القبلية في الإقليم وازدهار مدنه التي كانت في نفس الوقت محطات قوافل تمتد في حدود عمل صرت إلى السلوم ، وهي المدخل إلى مصر . هنا عاشت دائماً قبائل لواتة وهوارة ومن نزل بلادها من مهاجرة العرب . وقد هاجرت مع الفتح جماعات من لواتة وهوارة غرباً .

٢ - ويلى ذلك غرباً إقليم طرابلس ويشمل المساحة الممتدة من بلدة صرت إلى صبرة قرب الحدود التونسية الحالية وعاصمة هذا الجزء الذى يسمى طرابلس وينقسم إقليم طرابلس بصفة عامة إلى الأقسام الإدارية التالية ويسمى كل منها عملاً والجمع أعمال وهي :

( أ ) عمل صرت . ( ب ) عمل طرابلس .

( ج ) عمل صبرة . ( د ) جبل نفوسة .

وقد سبق أن ذكرنا أن جبل نفوسة كان في ذلك العصر جبلاً مسكوناً كثير الزروع والمراعى ، وكانت تسكنه قبيلة نفوسة وهي أكبر القبائل البربرية في ذلك الإقليم وسيكون لها دور كبير في تاريخ المغرب الإسلامى وخاصة في تاريخ دولة بنى رستم الخارجية الإباضية ، لأن النفوسيين دخلوا ذلك المذهب وثبتوا عليه وكان لهم فيه تاريخ طويل .

٣ - إقليم فزان : وهو فى الداخل على بعد نحو ٨٠٠ كم من الساحل ويمتد هذا الإقليم حتى يتصل بإقليم صحراوي آخر خارج عن بلاد المغرب هو إقليم كوار ، وهو إقليم واحات يصل المغرب بأفريقية الإدارية عند إقليم تشاد الحالى .

وكانت فزان دائماً إقليمياً عامراً بالواحات والمدن والقرى والمياه وسيهتم به العرب اهتماماً خاصاً وسينشرون فيه الإسلام وسيكون له تاريخ مجيد فى العصور الإسلامية .

٤ - إقليم أفريقية - وعاصمته القيروان - : ويبدأ عند بلدة قابس ويمتد غرباً

حتى ينتهى عند حدود ما يعرف اليوم بولاية قسطنطينة الحالية .

ولكن مصطلح أفريقية يطلق في التقسيم الإدارى العربى على ثلاثة أقسام :

أولها عمل طرابلس الذى ذكرناه بحدوده ، ثم عمل أفريقية الذى يقابل بلاد تونس الحالية ، ويلى ذلك شرقاً عمل الزاب أو إقليم الزاب ، وهو الجزء الشرقى من جمهورية الجزائر الحالية ، وحده الغربى مجرى نهر شلف وهو نهر صغير ينبع من جبال الأوراس جنوبى مدينة الجزائر الحالية ، ثم يسير شمالاً حتى إذا اقترب من البحر قرب موقع مدينة الجزائر انحرف إلى الغرب وسار بمحاذاة الساحل حتى يصب فى البحر المتوسط قرب وهران الحالية . والمجرى الأعلى لنهر شلف الذى يسير من الجنوب إلى الشمال هو الذى يمثل الحد الفاصل بين إقليم أفريقية بأقسامه الثلاثة ( طرابلس وأفريقية والزاب ) والمغرب الأوسط .

٥ - المغرب الأوسط : ويشمل المساحة الممتدة من المجرى الأعلى لنهر شلف إلى مجرى نهر المولوية ، وهو نهر ينبع من جبال الأطلس جنوبى المغرب الأقصى ثم يتجه شمالاً حتى يصب فى البحر المتوسط إلى الشرق من ميناء مليلة الحالية . وهو الحد الفاصل الطبيعى بين المغربين الأوسط والأقصى وإن كانت الحدود السياسية للمغرب الأقصى تسير اليوم شرقى هذا النهر فتدخل فيه مناطق وجدة وجراوة وتاوريرت ، أى أنها تمتد اليوم مسافة قليلة شرقى بحرى نهر المولوية .

٦ - ما يلى ذلك إلى الغرب وحتى المحيط أطلق عليه اسم المغرب الأقصى ، واعتبر حسان القبائل فى هذا الإقليم وحدات إدارية ، أى أنه قدر الأموال عليها على أساس القبائل النازلة فيها ، فكل قبيلة عليها قدر من المال تؤديه ، وكان يدفع فى الغالب عيناً ، وجرت العادة فى ذلك العصر على أن تقدم القبائل مقاتلين ينضمون إلى القوة العسكرية العربية العاملة فى المغرب ، ويعتبر تقديم أولئك المقاتلين جزءاً من المال المقرر على القبيلة ، ونتيجة لذلك كثر انضمام البربر إلى الجيوش العربية على نحو لا نجد له مثلاً فيما فتحه العرب من البلاد إلى ذلك الحين إلا فى إيران وبلاد الترك ، والنتيجة أن الجيش العربى أو الجيش الإسلامى العامل فى المغرب تضخمت أعداده بهذه الجموع البربرية . ومن البديهي أن البربرى الذى يدخل فى الجيش الإسلامى يعتنق الإسلام ، ولهذا كان ذلك من أكبر العوامل فى إسلام أهل

المغرب . ونقطة البداية الواضحة هنا هي القوة التي انضمت إلى حسان ، مع ولدى الكاهنة ، وعددها اثنا عشر ألف رجل ، تولى قيادتهم ابنا الكاهنة ، وقد سميت الجماعة البربرية التي انضمت إلى جيوش المسلمين بالرهائن ، ولم يكونوا في الحقيقة رهائن ، وإنما هم ضمان لطاعة بقية أهلهم في مواطنهم .

بعد ذلك رأى حسان أن يتم فتح أفريقية ، فقرر إزالة مدينة قرطاجنة تماماً حتى يتلاشى أمر الروم في أفريقية والمغرب ، وبالفعل خرب حسان ما بقى من قرطاجنة ذات التاريخ القديم الباهر ، فلم يعد لها بعد ذلك أثر يذكر ، غير أن الفرنسيين عندما احتلوا إقليم تونس أحيوها من جديد في صورة ضاحية لمدينة تونس ، عرفت باسمها الفرنسي وهو قرطاج ، وقد أصبحت جزءاً من مدينة تونس .

ورأى حسان أن المغرب أو أفريقية لا تستغنى عن ميناء كبير ، لأن أفريقية إقليم بحرى ، وإذا نظرنا إلى الخريطة وجدنا أنها في جملتها عبارة عن شبه جزيرة داخل البحر ، وسواحلها الشرقية والشمالية مليئة بالموانئ الطبيعية الصغيرة والكبيرة ، ولهذا كان لا بد لحسان من أن ينشئ لأفريقية ميناء يحل محل قرطاجنة .

### إنشاء ميناء تونس :

اختار حسان لإنشاء الميناء الإسلامى الجديد موضعاً يقع إلى الجنوب الغربى من قرطاجنة ، ونظراً إلى أن العرب كانوا ينشئون المدن على أساس صحراوى تقريباً ، أى إنهم كانوا يشترطون في المدينة التي ينشئونها أن تكون وسط إقليم مراعى لحاجة الخيل والجمال ، فإن حساناً وجد نفسه مضطراً إلى مخالفة التقليد العربى عندما أراد إنشاء الميناء الجديد . كانت هذه أول مرة ينشئ فيها العرب ميناء ، وجمعا بين ما يتطلبه إنشاء ميناء من ضرورة وجودها على الساحل وبعدها عنه في نفس الوقت اختار حسان موضع سبخة تقع على الساحل ، والسبخة هي منطقة رملية ، ولكن رمالها ليست سائلة بل رمال ثابتة متماسكة بفعل الرطوبة .

وكانت هذه السبخة تمتد من الساحل إلى مسافة كبيرة في الداخل . فرأى

حسان أن موقعها يصلح لإنشاء مينائه ، واختار موضع إنشاء الميناء عند نهاية السبخة من داخل الأرض ، وشق في رمال السبخة قناة واسعة عميقة تخترقها من ساحل البحر إلى نهايتها عند التقائها بالأرض الصلبة ، وجعل القناة من السعة بحيث تسمح بدخول عدد من المراكب وخروجها ، وبذلك أصبحت الميناء آمنة من الهجوم من ناحية البحر ، لأن بينها وبين البحر هذه السبخة التي تشققها القناة ، وقد بدأ حسان بإنشاء دار الصناعة أى مصنع بناء السفن ومساكن العمال والبحريين ، حول السبخة ، واستعان في إنشاء دار الصناعة بعدد من أقباط مصر أرسلهم إليه والى مصر وسميت الميناء الجديدة « تونس » لأنه كانت توجد قرب موضعها قرية قديمة تسمى تينس . وكانت السبخة تقع على جزء من خليج واسع يسمى خليج راديس وقد عمر البناء بسرعة وتحول إلى مدينة من أعمر مدن أفريقية وميناء من أكبر موانئ الإسلام في البحر المتوسط .

بإنشاء ذلك الميناء والقضاء على قوة الروم ومينائهم ، دخل تاريخ أفريقية الإسلامية في دور جديد ، ولهذا يعتبر حسان بن النعمان الغساني من أكابر بناء الدولة الإسلامية ، فهذا التنظيم الإدارى والمالى ، الذى وضعه لأفريقية ، حول هذه الناحية أو هذه الولاية الجديدة إلى قاعدة إسلامية ينطلق منها العرب إلى ما يليها غرباً ، ثم إن ميناء تونس فتح أبواب أفريقية من جديد لتستعيد مركزها القديم في البحر المتوسط .

وبينما كان العمل في إنشاء تونس يسير في طريقه ، كان حسان يواصل عمله في هدوء ، فأعاد تنظيم القيروان وأصلح مسجدها ووسعه ، ثم فوجيء بقرار عزله وقد تم إنشاء تونس عام ٨٤ هـ / ٧٠٣ م .

جاء قرار العزل بعد أربع سنوات من قضائه على الكاهنة ، وبعد سنة واحدة من إنشاء تونس ، ولم يكن عزله عن قلة كفاية ، وإنما كان السبب أن والى مصر وهو عبد العزيز بن مروان أخو الخليفة عبد الملك بن مروان وولى عهده ، عندما رأى ازدهار أفريقية وتحولها إلى قطر غنى فيه إمكانات واسعة للفتوح والمكاسب والمغانم طمع فيها لنفسه ، وكان عبد الملك بن مروان - الخليفة الأموى - يدارى أخاه ، لأنه كان يرجو منه أن يتنازل عن ولاية العهد لابنه الوليد ، لذلك فعندما

عزل عبد العزيز بن مروان حسان بن النعمان لم يتوقف الخليفة في الأمر ، وتلقى حسان قرار العزل بنفس طيبة وإن كان ذلك قد أغضبه ، وعاد إلى مصر ، وهناك حاول عبد العزيز بن مروان أن يسترضيه فرفض ذلك . وعرض عليه عبد الملك أن يردّه إلى ولايته فأبى وأقسم ألا يلبى لبني أمية عملاً بعد ذلك ، وعلى أى حال فقد كان حسان إذ ذاك شيخاً عالى السن ، ولم يكن يعنيه كثيراً أن يدخل في مناقشات تفسد الأمر بينه وبين بني أمية ، وهكذا عاد إلى قومه في الشام ولم نعد نسمع عنه شيئاً بعد ذلك رغم العمل الكبير الذى قام به كما رأينا ، وبصفة عامة نلاحظ أن الدولة العربية في ذلك العصر كانت شديدة الإهمال والتهاون في شأن عظماء الرجال الذين ساهموا بأنصبه كبيرة في إقامة دولة الإسلام .

### ولاية موسى بن نصير :

وكان الرجل الذى اختاره عبد العزيز بن مروان لولاية أفريقية شخصية فريدة في بابها من كل ناحية وهو موسى بن نصير .

وموسى هو أحد أولاد نصير الذى كان من أسرى بلدة صغيرة في بادية الشام شرقى العراق تسمى عين التمر ، أسره خالد بن الوليد فأسلم على يديه وأصبح من رجاله ، ونشأ ابنه موسى في جو عربى إسلامى فنجدّه يستعرب ويأخذ كل أخلاق العرب حتى حسبه المؤرخون في جملة العرب ونسبوه إلى قبيلة لخم ، وهو نفسه نسب نفسه إلى الأنصار ، إلا أن أصله غير العربى يتلاشى أمام شخصيته العربية التى ظهر بها في التاريخ ، فإننا نجد أنفسنا أمام شاب عربى يتدخل في السياسة والحرب ويعمل في خدمة بني أمية ويشترك في السياسة والإدارة فنسمع عنه أنه تولى رئاسة حرس معاوية بن أبى سفيان ثم نجده بعد ذلك في خدمة عبد الملك بن مروان ، فيرسله مساعداً لأخيه الأصغر بشر بن مروان الذى ولوه البصرة . وكان بشر شاباً صغيراً تولى البصرة على رغم احتجاج الحجاج ولهذا كان الحجاج يكره موسى بن نصير ويتهمه بأنه يمد يده إلى الأموال ، وفي يوم من الأيام طالبه الحجاج بمبلغ ضخم واتهمه بخيانة الدولة فهرب ولجأ إلى عبد العزيز بن مروان والى مصر فأدى عنه جزءاً كبيراً من ذلك المال واصطنعه ثم ولاه أفريقية .

وقد أنكر عبد الملك هذا الاختيار ولكن عبد العزيز أكد لأخيه أن مرشحه يفوق حساناً ومن سبقه في النشاط والقدرة المالية ، ومن ناحية أخرى نجد أن موسى تعهد لعبد الملك بغنائم وفتوح تفوق كل من سبقه ، وهذا الوعد من ناحيته كان ضرراً عليه في النهاية ، لأنه اضطره إلى أن يقوم بنشاط واسع في الناحية العسكرية في أفريقية دون أن تكون هناك ضرورة ، فإن الناس في المغرب كانوا مستعدين كافة للدخول في الإسلام دون حرب ، ولكن ذلك لم يكن يحقق أطماع موسى إذ أنه كان يحول بينه وبين الحصول على الغنائم .

لهذا فإن أعمال موسى بن نصير العسكرية في جملتها كانت كثيرة جداً في أفريقية ، ولكن الهدف الأساسي منها كان تقوية مركزه الشخصي في الدولة بالعمل المتوالي وإرسال مقادير ضخمة من الأموال والأسلاب والمغانم ، ومن بعض النواحي نجد أن ذلك المسلك أضر بموسى في النهاية . ويزيد من مسئولية موسى أنه كان له أولاد كثيرون كلهم طامعون مثل أبيهم ، فكثرت الضربات التي وجهوها إلى القبائل دون حاجة ، ومع أن تلك الضربات انتهت آخر الأمر بإتمام فتح المغربيين الأوسط والأقصى إلا أنها تسببت بعد ذلك في أضرار كثيرة للدولة الإسلامية في عصر الولاة ، فقد رأى البربر أن العرب قوم قساة أصحاب مطامع مالية ومادية ، وما كانوا في الحقيقة كذلك ولكن تلك كانت عاقبة سلوك موسى .

وسنرى أن ذلك سيكون من أسباب الفتنة البربرية الكبرى التي ستقوم قرب نهاية العصر الأموي في أيام هشام بن عبد الملك بن مروان .

### أعمال موسى بن نصير في أفريقية والمغرب :

٨٥ - ٩٥ هـ / ٧٠٤ - ٧١٤ م :

بدأ موسى بن نصير بتوجيه ضربة شديدة إلى جماعة من البربر كانت تسكن في منطقة حصينة إلى الغرب من مدينة تونس الحالية ، تسمى بجبل زغوان ، وهناك أنزل مذبحه بالناس ، وأسر ألوفاً من الرؤوس كما تقول النصوص . ولا نعرف إن كان المراد هنا أسرى من البشر أو أن الإشارة إلى مواش نهبت . على

أى حال أرسل موسى بن نصير غنائم وافرة إلى عبد العزيز بن مروان فاستعظمها ولم يصدق كتاب موسى عندما ورد إليه ، وهذه الضربة العنيفة أقنعت عبد الملك بأن هذا الوالى الجديد كفاء وقدير للولاية كما تحدث عنه عبد العزيز بن مروان .

تشجع موسى بذلك فأخذ يرسل أولاده في قطع من الجند تنزل بالناس ضربات كهذه تعود بالغنائم الوفيرة . وكل هذا نفّر الناس من المسلمين وإن كان قد عاد على موسى ومولاه بأموال كثيرة ، وقد أضر موسى بنفسه ضرراً بليغاً بذلك لأنه مادام قد بدأ تلك البداية فكان لابد له من أن يستمر فيها ، وذلك أمر عسير . ثم سار موسى في اتجاه الغرب ووصل إلى بلدة صغيرة تسمى سجوما على مقربة من تطوان الحالية ، وكانت هذه البلد هي مفتاح الطريق ، وبعد الاستيلاء على سجوما ونهبها ، انفتح الطريق إلى طنجة وسبتة فدخل المسلمون هاتين الميناءين اللتين تعتبران مفتاحي البحر المتوسط ، وهذه هي المرة الثانية التي يصل فيها المسلمون إلى شاطئ الأطلسى .

هنا التقى المسلمون مرة أخرى بيليان ، وكما قلنا سابقاً فإن ذلك الاسم كان تسمية عامة أطلقها المسلمون على حاكم هذه المنطقة أياً كان .

على أى حال تفاهم المسلمون مع بيليان فهادنهم أو حالفهم ، وعاونهم بأمداد عسكرية قليلة . هنا في بلاد المغرب أنشأ موسى بن نصير ولايتين إسلاميتين جديدتين :

**الأولى :** في المغرب الأوسط وتبتدئ من نهر شلف إلى نهر المولوية وسميت بالمغرب الأوسط قاعدتها تلمسان ، وأقيم عليها وال ، ومعه حامية عسكرية من العرب والبربر .

**والثانية :** تمتد من نهر المولوية إلى ساحل المحيط الأطلسي وتمتد جنوباً على وادي أم الربيع وتسمى بالمغرب الأقصى أو ولاية طنجة ، وقاعدتها طنجة ، ويقوم فيها وال ومعه قوة عسكرية عربية بربرية .

وعلى هذا تكون ولايات المغرب العربي قد أصبحت كما يلي :

١ - برقة : وكانت تابعة لمصر أو غير واضحة التبعية .

٢ - أفريقية : وتشمل طرابلس - وتبدأ عند قرية صغيرة إلى الغرب من صرت تسمى تاورغا وتنتهى عند قابس ، ثم أفريقية وتشمل ما يقابل بلاد تونس الحالية تقريباً ، وإقليم الزاب وهو شرقى الجمهورية الجزائرية الحالية إلى مجرى نهر شلف ، وهذه الأقسام الثلاثة تسمى معاً أفريقية .

٣ - المغرب الأوسط : ويمتد من مجرى شلف إلى مجرى المولوية .

٤ - المغرب الأقصى : ويشمل مايلي ذلك من البلاد المغربية إلى ساحل الأطلسى غرباً وإلى وادى أم الربيع جنوباً .

وأقام موسى على طنجة ابنه مروان ، ثم بعث حملات أخرى غزت المناطق الواقعة جنوبى وادى أم الربيع ، ووصلت بسطان المسلمين إلى أقصى أنحاء المغرب من ناحية الجنوب ، وهنا أنشئت ولاية جديدة تسمى سجلماسة . وسجلماسة هي الواحة الكبرى التى تتكون منها مجموعة من الواحات يطلق عليها فى مجموعها اسم تافيلالت ويتكون منها إقليم زراعى خصيب وافر المياه على أبواب الصحراء الكبرى . وبعدها مباشرة - أى بعد سجلماسة - تبدأ الصحراء التى لا تنتهى إلا عند حوض السنغال ، وهناك كانت تقوم مدينة تسمى أودغشت وكلا البلدين كان محطة تجارية كبرى لمن يقطعون الصحراء . وكانت الصحراء الكبرى فى هذه الناحية الساحلية مأهولة إذ ذاك بقبائل هي خليط من البربر وسكان أفريقية المدارية ، وهذه القبائل كانت تدخل ضمن المجموعة الصنهاجية . وهنا فى ذلك الإقليم الصحراوى ستنشأ حركة المرابطين فى القرن الهجرى الخامس . ومعنى ذلك أن قوة الدفع الإسلامى وصلت إلى ذلك البعد السحيق فى ذلك التاريخ المبكر .

وهنا أى فى منطقة السوس أنشأ موسى الولاية الإسلامية الرابعة التى تسمى السوس أو سجلماسة وعاصمتها عند منابع نهر المولوية . وقد ولى موسى على هذه الولاية الجديدة مولاه طارق بن زياد الورفجوى ، وتلك هي المرة الأولى التى نسمع فيها باسم ذلك الرجل الذى سيكون له دور كبير فى تاريخ الإسلام عندما يتولى فتح الأندلس .

وعلى هذا يكون لدينا في المغرب الإسلامى الولايات التالية :

١- برقة.

٢- أفريقية : وتشمل أعمال طرابلس وأفريقية ثم إقليم الزاب وتصل إلى نهر شلف وعاصمتها القيروان .

٣- ولاية المغرب الأوسط : بين نهر شلف ونهر الملووية وعاصمتها تلمسان .

٤- ولاية المغرب الأقصى : وعاصمتها طنجة .

٥- ولاية السوس أو سجلماسة : وعاصمتها سجلماسة .

وعاد موسى إلى القيروان بعد أن وضع الأساس الإدارى للمغرب الإسلامى وتنظيمه ، ففى عاصمة كل ولاية من هذه أقيمت قاعدة عربية إسلامية على رأسها وال ، واستقرت جماعات من العرب فيها لتعلم أهل الناحية قواعد الإسلام ، وفى نفس الوقت أخذت العربية فى الانتشار بين الناس ، وذلك لأنه على الرغم من تلك الأعمال العسكرية العنيفة التى قام بها موسى بن نصير وأولاده وقواده ، إلا أن البربر شعروا بقيمة الإسلام فأقبلوا عليه ووجدوا فى دولته مكاناً واسعاً للعمل ، وبعد أن كانوا قبائل تعيش على هامش التاريخ دخلت ميدانه الواسع ، وأصبح رجال القبائل البربرية أعضاء فى الجماعة الإسلامية العربية وبدأ التاريخ الحقيقى لشعب البربر الكبير بعد إسلامه وتعربه ، الذى استلزم كما سنرى وقتاً طويلاً ، ولا بد من الإشارة إلى جاذبية الإسلام وقوة أسره التى تمكنت من إدخال هؤلاء الناس فى نطاق العروبة والإسلام .

فى ذلك الحين كانت سن موسى تقارب السبعين من العمر ، ولكنه كان قوياً نشيطاً فأعاد بناء ميناء تونس ، واهتم بدار صناعتها ( وهى الميناء ومكان بناء السفن ) وهى ما نسميه نحن اليوم ترسانة ، وهى لفظة إيطالية محرفة من المصطلح العربى دار الصناعة ( ترسانة ) ، ومن هذا الميناء الكبير بدأ المسلمون غاراتهم الأولى على صقلية وجزيرة سردينية . كانت غارات سريعة تعود على من يقومون بها بمغانم وفيرة ، ولكنها تبدأ نشاط المسلمين الواسع فى الحوض

الغربي للبحر المتوسط الذى كان يتحول إلى بحيرة إسلامية شيئاً فشيئاً وخاصة بعد فتح الأندلس الذى سنتحدث عنه بعد قليل ثم فتح صقلية الذى بدأ فى أوائل القرن الهجرى الثالث .

وبعد قليل نسمع أن مروان بن موسى بن نصير سثم المقام فى طنجة فنقله أبوه وولى مكانه طارق بن زياد ، فاستقر هناك على رأس حامية إسلامية غالبيتها من البربر ، وهكذا نرى كيف نجح الإسلام فى تأمين جناحه الغربى بقوة من قوم لم يكونوا مسلمين ولا عرب قبل حين قصير ، وطارق بن زياد يمثل لنا الجيل الثالث من البربر المسلمين المستعربة ، فهو طارق بن زياد بن عبد الله وبقية الأسماء فى نسبه بربرية ، ويقال مثل ذلك عن قائد آخر يعمل مع موسى وطارق يسمى طريف بن زرعة بن أبى مدرك . وبعد ذلك وابتداء من سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م فتح طارق وموسى الأندلس على النحو الذى سنفصله فى القسم الخاص بالأندلس من هذا الكتاب .

وبينما كان موسى يتم فتح شبه جزيرة « أيبيريا » وقع خلاف بينه وبين طارق بن زياد ، وبلغ الأمر إلى الخليفة الوليد فاستدعاهما معا . وعاد موسى ، ذلك الشيخ الفريد فى بابه من أقصى جليقية ( جاليسيا ) وهى الركن الشمالى الغربى من شبه جزيرة أيبيريا إلى الشرق . ومن الغريب أنه فى عودته كان يظهر للناس فى هيئة سيد عربى عظيم ، وكلما نزل بلداً ضرب فسطاطه ( خيمته ) خارجه واستقبل الناس استقبال سيد عظيم . وكذا فعل فى أشبيلية وتلمسان والقيروان والفسطاط ، ثم وصل إلى غزة ومعه طارق ، وهناك جئاه زسول من قبل ولى العهد سليمان بن عبد الملك يطلب إليه التريث قبل السير إلى دمشق ، لأن الخليفة الوليد كان مريضاً مرض الموت ، وكان خليفته وولى عهده أخوه سليمان يريد أن يتسلم الهدايا والمغانم الوافرة التى كان موسى يحملها معه ، ولكن موسى ، ذلك المغامر الشيخ قامر بحظه السعيد مرة أخيرة وأسرع المسير إلى دمشق وكانت المنية قد سبقته إلى الوليد بن عبد الملك وخانه الحظ هذه المرة ، وعندما وصل إلى دمشق وجد أن الخليفة هو سليمان بن عبد الملك ( ٩٦ - ٩٩ هـ / ٧١٥ - ٧١٧ م ) فاستقبله شر استقبال ، وأخذ منه كل ما وجد معه وأغرمه مالا

وفيراً ، فمضى ذلك الرجل ، الذى أضاف إلى دولة الإسلام المغربيين الأوسط والأقصى ثم كل شبه جزيرة أيبيريا ، يسأل القبائل لكى يحصل على الفدية ، وكان فى حوالى السابعة والسبعين من عمره وكان رجلاً بديناً ، يقام فى الشمس دون رحمة أو هواده حتى أدى ما يسره الله له ، ثم سامحه سليمان بالباقي واتخذة نديماً ، ولكن موسى كان قد كره الدنيا والناس ولم يسعد مع سليمان ، وبعد ذلك لم نعد نسمع عنه ، ومات فى ظلال النسيان ، أما طارق العظيم فقد اختفى هو الآخر من الوجود فى صمت ، ولكنه بقى فى التاريخ ، مثله فى ذلك مثل غيره من منشئى دولة الإسلام الذين قضى عليهم سليمان بن عبد الملك من أمثال قتيبة بن مسلم الباهلى ومحمد بن القاسم الثقفى ، هؤلاء الذين وصلوا برايات الإسلام إلى داخل غرب الصين وإلى بلاد السند وهى شمال غربى الهند فيما يعرف ببلاد الباكستان ، كل هؤلاء قضى عليهم خليفة حقود ، ضئيل الهيئة زرى الشكل ، وهو سليمان بن عبد الملك .

وفى نهاية ولاية موسى بن نصير تنتهى فترة الفتح فى تاريخ المغرب الإسلامى وهى فترة طويلة تصل إلى فوق السبعين سنة ، فنحن الآن فى سنة ٩٨ هـ / ٧١٦م وفتح المغرب بدأ سنة ٢١ هـ / ٦٤٢م ولهذا فإننا نعتبر فتح المغرب عصراً قائماً بذاته من عصور تاريخ المغرب ، فى حين أن فتح مصر استغرق سنتين ، وفتح الشام استغرق حوالى أربع سنوات ، وفتح العراق وإيران لم يستغرق أكثر من ثمانى أو تسع سنوات ، تنتهى بمعركة نهاوند التى تسمى بفتح الفتوح .

\*\*\*